الألحان المحلية وأثرها على التلاوة القرآنية

د. الجزولي الأمير الجزولي (*)

مقـدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً وأودعه أسراره وإعجازه وتحدى به أهل اللسان والتفكير على مر الدهور والأزمان ، وجعل عجائبه لا تنقضي وجعل لتلاوته حلاوة وعليه طلاوة وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد من قال له ربه : (وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)([1]) . فكان أفضل من رتل وأحسن من قرأ وخير من تلا ورضى الله عن الصحابة الذين اقتدوا به في ذلك وتناقلوه جيلاً جيلاً فرضي الله عنهم أجمعين ، ولعله من نافلة القول أن القرآن الكريم هو الكتاب العالمي في أحكامه وشرائعه وفي ترتيله وتلاوته .

فأما شرائعه وأحكامه فقد اقتضت حكمة الله أن يجعل فيها متسعاً لاختلاف الأفكار والأفهام على حسب طاقة البشر في كل زمان ومكان ، وأما

(*) د. الجزولي الأمير الجزولي عميد عمادة تعليم القرآن الكريم – جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية .

(1) سورة المزمل الآية 3

طريقة أدائه تلاوة وترتيلاً فلا مصلحة لأحد في الاختلاف حولها طالما تولى النبي صلى الله عليه وسلم طريقتها ونقل الصحابة عنه وصفها وضوابطها ورضي الله عن التابعين الذين تلقوا ذلك عن الصحابة مشافهة وتلقيناً ليكون ذلك النقل متواتراً لطريقة الأداء يتناقلها الناس ولا يحيدون عنها سبيلاً .

ثم بمرور الزمن واتساع رقعة الإسلام واختلاف الألسنة بين عربي وأعجمي نسى الناس بعضاً مما ورثوه في طريقة الأداء التي اعتمدها النبي صلى الله عليه وسلم واختلقوا أصواتاً لا تمتُّ إلى صوته بصلة ولا بقوانين لغة القرآن(٨) ، ثم قيض الله الأئمة فنفضوا عن هذا المنهج الغبار ، وردوه إلى صوابه فرتبوا ودونوا الطريقة التي أثرت عنه صلى الله عليه وسلم ، معتمدين في ذلك على ما صحت روايته عنه في الأداء وعلى قوانين اللغة العربية ، فبينوا متى يمد الحرف ، ومتى يقصر ، ومتى يغن ، ومتى يظهر ومتى يخفي ، ولم يتركوا لأحد مجالاً للمخالفة في شيء من ذلك .

جزى الله بالخيرات عنا ائمة ** لنا نقلوا القرآن عذباً وسلسلا

وبالرغم من ذلك ، فلا زال هناك بعض أهل البلاد الإسلامية يتمسكون بطرق من الأداء خاصة بهم ويجعلون لها مسميات لا توجد عند السلف ولا الخلف ، ويجعلونها معياراً لصحة التلاوة وقانوناً يفرق به بين المتنافسين ، ولما

([1]) أشار صاحب الإتقان إلى هذه الأصوات بقوله (ومما ابتدعوه شيء سموه الترعيد وهو أن يرعد كأنه يرد من برد) انظر الإتقان للسيوطي ج1 ص 101-102

كتب الله لي أن أزور إندونيسيا في عام ألفين وثلاثة للمشاركة في المسابقة الدولية في حفظ القرآن الكريم أطلعت من بعض الحفاظ المتسابقين على بعض الضوابط المعمول بها في تقويم المتنافسين فعلمت أنها طريقة تسمى ب(المقامات) ، ففكرت من ذلك الوقت في الكتابة عن هذه المقامات ومعرفة مدى صلتها بالقرآن الكريم وبلغة العرب التي هي لغته التي نزل بها ، فاخترت لهذه الدراسة عنوان :

(الألحان المحلية وأثرها على التلاوة القرآنية)

وجعلتها في مقدمة وثلاثة مباحث على النحو التالي :

المقدمة (وتشتمل على أهمية هذا الموضوع وسبب اختياره)

المبحث الأول : (مسميات الأداء في القرآن الكريم ومعانيها) به خمسة مطالب :

المطلب الأول : القراءة

المطلب الثاني : التلاوة

المطلب الثالث : الترتيل

المطلب الرابع : التلحين

المطلب الخامس : التنغيم

المبحث الثاني : (صفة التلاوة المعتمدة شرعاً) وبه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : صفة تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم

المطلب الثاني : صفة تلاوة الصحابة رضي الله عنهم

المطلب الثالث : ضوابط التلاوة الصحيحة عند علماء القراءات

المبحث الثالث : (الألحان المحلية (التوشيحات والمقامات) وبه أربعة مطالب :

المطلب الأول : معنى الموشحات وعوامل ظهورها

المطلب الثاني : معنى المقامات وأنواعها

المطلب الثالث : نماذج بالرسم توضح اتجاهات الصوت عند القراءة بالتوشيحات والمقامات

المطلب الرابع : آراء أهل العلم في القراءة بالمقامات

الخاتمة : النتائج والتوصيات

الفهارس العامة

المصادر والمراجع

المبحث الأول
(مسميات الأداء في القرآن الكريم ومعانيها)

المطلب الأول
القـــــــراءة

وردت كلمة (قرأ) وبعض مشتقاتها في القرآن الكريم ست عشرة مرة في إحدى عشرة سورة وعلى صيغ مختلفة منها :

صيغة الماضي وهي :

قال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)([1])

وقال تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)([2])

وقال تعالى : (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)([3])

صيغة المضارع :

قال تعالى : (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا)([4])

([1]) **سورة النحل الآية 98**

([2]) **سورة الإسراء الآية 45**

([3]) **سورة الشعراء الآية 198**

([4]) **سورة الإسراء الآية 106**

وقال تعالى : (وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُه)([8])

وقال تعالى : (فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ)([1])

وقال تعالى : (فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)([2])

وقال تعالى : (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى)([3])

وقال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)([4])

وقال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ)([5])

صيغة الأمر :

قال تعالى : (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)([6])

وقال تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)([7])

وقال تعالى : (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) ([8])

([1]) **سورة الإسراء الآية 93**

([2]) **سورة يونس الآية 94**

([3]) **سورة الإسراء الآية 71**

([4]) **سورة الأعلى الآية 6**

([5]) **سورة الأعراف الآية 204**

([6]) **سورة الانشقاق الآية 21**

([7]) **سورة الإسراء الآية 14**

([8]) **سورة العلق الآية 1**

وقال تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِي)([1])

وقال تعالى : (عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ) ([2])

وقال تعالى : (فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ)([3])

([1]) سورة العلق الآية 3

([2]) سورة الحاقة الآية 19

([3]) سورة المزمل الآية 20

([4]) سورة المزمل الآية 20

المطلب الثاني
التلاوة

وردة كلمة (تلا) وبعض مشتقاتها في القرآن الكريم في ثلاثة وستين موضعاً ، وبمعان مختلفة بعضها بمعنى القراءة وبعضها بمعنى الاتباع والعمل وبعضها بمعنى قص الأخبار .

جاء في لسان العرب : (وتلوت القرآن تلاوة : قرأته ، وعم به بعضهم كل كلام ، وأنشد (ثعلب) :

واستمعوا قولا به يكوى النطف ** يكاد من يتلى عليه يجتئف

وقال عز وجل (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا) قيل هم الملائكة وغيرهم ممن يتلو ذكر الله تعالى ، الليث : تلا ، يتلو ، تلاوة ، يعني قرأ قراءة وقوله تعالى : (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) معناه يتبعونه حق اتباعه ويعملون به حق عمله ، وقوله عز وجل (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) قال عطاء : على ما تُحدِّث وتَقُصُّ ، وقيل ما تتكلم به كقوله : فلان يتلو كتاب الله : يقرأه ويتكلم به(٨).

أما معنى كلمة (تلا) ومشتقاتها في اصطلاحات المفسرين فقد وردت بمعان مختلفة كما هي عند علماء اللغة ، ففي قوله تعالى (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا)( )

([1]) **لسان العرب ، حرف اللام ، فصل الثاء مادة (تلا)**

([2]) **سورة الصافات الآية 3**

معناه الملائكة تقرأ كتاب الله تعالى ، قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير(٨) ، وقوله تعالى : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ)( ) معناها إذا قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وحجته الواضحة قالوا له ائت بقرآن غير هذا أو بدله إلى وضع آخر ، وبمعنى العمل بالقرآن واتباعه ، قال تعالى : (الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته)( ) قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده أن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأوَّل منه شيئاً على غير تأويله( ) .

ولعل كلمة (تلا) ومشتقاتها لا تخرج معانيها عن كونها تعني القراءة والعمل والاتباع والكشف والبيان كما قال تعالى : (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعالَمِينَ)( )

([1]) **الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج5 ص 42-43**

([2]) **سورة يونس الآية 15**

([3]) **تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج2 ص 418**

([4]) **المرجع السابق ج1 ص 163**

([5]) **سورة آل عمران الآية 108**

المطلب الثالث
الترتيـــــــــل

وردت لفظة (ترتيل) ومشتقاتها في القرآن الكريم أربع مرات فقط ، مرتين في سورة المزمل بصيغة الأمر والمصدر وهما قوله تعالى : (وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً)([1]) ، ومرتين في سورة الفرقان بصيغة الماضي والمصدر وهما قوله تعالى : (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)([2]) .

أما معناها في اللغة فهي كما قال صاحب القاموس المحيط (ورتل الكلام ترتيلا ، أحسن تأليفه وترتل فيه : ترسل([3]) ، وكذلك في لسان العرب ، الترتيل في القراءة الترسل فيها والتبيين من غير بغي) ، وفي التنزيل العزيز (وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) ، وقال أبو العباس : ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين والتمكين، أراد في قراءة القرآن([4]) .

ومعناها في اصطلاح المفسرين لا يبعد كثيراً عن معناها اللغوي ففي قوله تعالى : (وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) أي (قراءة على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه)( ) ، وهو

([1]) سورة المزمل الآية 4

([2]) سورة الفرقان الآية 32

([3]) القاموس المحيط للفيروز ابادي

([4]) لسان العرب حرف الراء (رتل)

([5]) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج4 ص 434

كذلك (قراءة على تأن وتثبت ولا تحصل إلا بتبيين الحروف واشباع الحركات ، وأنه لابد للقارئ منه لتقع قراءته عن حضور القلب وذكر المعاني فلا يكون كمن يعثر على كنز من الجواهر عن غفلة وعدم شعور)([8]) ، وفي قوله تعالى (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)([1]) أي (ورسلناه ترسيلاً ، ويقول شيئاً صار بعد شيء)([2]) .

ومن هنا يمكن إيجاد النسبة بين معنى التلاوة والترتيل فالتلاوة هي القراءة مطلقاً أما إذا كانت بتمهل وترسل فهي الترتيل والله اعلم .

المطلب الرابع
التلـحين

ورد لفظ (لحن) في موضع واحد في القرآن الكريم ولا صلة لمعناه في مجال هذا البحث وهو قوله تعالى : (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ)([3]) .

أما اللحن الذي نحن بصدده في هذا البحث فمعناه لغة كما جاء في لسان العرب (واللحن الذي بمعنى اللغة كقول عمر رضي الله عنه : تعلموا السنن والفرائض واللحن كما تعلموا القرآن ، يريد اللغة ، وجاء في رواية تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلموا لغة العرب بإعرابها ، وقال الأزهري : تعلموا لغة العرب في القرآن واعرفوا معانيه كقوله تعالى :

([1]) **تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ج24 ص 378**

([2]) **سورة الفرقان الآية 32**

([3]) **الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج13 ص 21**

([4]) **سورة مُحَمَّد الآية 32**

(وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) أي معناه وفحواه فقول عمر رضي الله عنه تعلموا اللحن يريد اللغة ، وكقوله ايضا (أُبيٌّ أقرأُنا وإنا لنرغب عن كثير من لحنه ، أي : من لغته ، وكان يقرأ التابوه)([8]) .

واللحن بمعنى الغناء (واللحن الذي هو الغناء وترجيع الصوت والتطريب شاهده قول يزيد بن النعمان :

لقد تركت فؤادك مستجنا ** مطوقة على فنن تغني

يميل بها وتركبه بلحن ** إذا ما عن للمحزون أنا

ويقال فلان لا يعرف لحن هذا الشعر أي لا يعرف كيف يغنيه([1]) .

جاء في أساس البلاغة (لحن في قراءته تلحيناً : طرب فيها وقرأ بألحان ولحون)([2]) .

وفي اصطلاح المفسرين (في لحن القول يعني في معنى القول وفحواه ومقصده ، وللحن معنيان ، صواب وخطأ ، صرف الكلام وإزالته عن التصريح بالمعنى إلى التعريض ، وهذا محمود من حيث البلاغة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (فلعل بعضكم ألحن بحجته من بعض)([3]) وإليه قصد بقوله

([1]) لسان العرب حرف النون فصل الحا (لحن)

([2]) المجرع السابق المادة نفسها

([3]) أساس البلاغة للزمخشري حرف الحاء (لحن)

([4]) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، مادة حج

(وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) أما اللحن المذموم فظاهر وهو صرف الكلام عن الصواب إلى الخطأ بازالة الإعراب أو التصحيف ، ومعنى الآية : إنك يا محمد لتعرفن المنافقين فيما يعرضون به من القول من تهجين أمرك وأمر المسلمين وتقبيحه والاستهزاء به فكان بعد لا يتكلم منافق عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا عرفه بقوله ويستدل بفحوى كلامه على فساد باطنه ونفاقه(٨) .

واللحن الذي نحن بصدد دراسته هنا هو اللحن بمعنى الغناء والتطريب .

(1) تفسير الخازن التأويل في معنى التنزيل مُحَمَّد بن إبراهيم الشهير بالخازن

المطلب الخامس
التنغيم والتغني

أما النغم في اللغة فهو (جرس الكلمة وحسن الصوت في القراءة وغيرها ، وهو حسن النغمة والجمع نغم([1]) ولم يرد منه في القرآن لفظ صريح ولا إشارة إليه .

وكذلك التغني فلم ترد آية بلفظه ولا مشتقاته ولكن في الحديث : (ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن)([2]) .

([1]) لسان العرب ، حرف الميم (نغم)

([2]) صحيح البخاري ، ح رقم 6973 عن أبي هريرة وسنن أبي داود ح رقم 1257 عن سعيد بن أبي سعيد .

المبحث الثاني
(صفة التلاوة المعتمدة شرعاً)

المطلب الأول
صفة تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم

لاشك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد شرع للناس الطريقة التي يتعاملون بها مع القرآن الكريم تلاوة وتدبراً وعملاً وكل ذلك لأنه صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة في أمور الحياة والآخرة ، فقد روت لنا السنة الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن بما يوصله إلى فهمه وتدبره فكان صلى الله عليه وسلم يقرؤه (يتلوه) بتؤدة واطمئنان وتأن ، ففي صحيح البخاري ، عن قتادة قال : سئل أنس ، كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كانت مداً ، ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم)([8]) ، ومثل ذلك في أطراف الحديث وفي مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك (أن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مداً)([1]) ، وفي صحيح مسلم عن حفصة أنها قالت : (ما رأيت رسول الله صلى الله

([1]) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، حديث رقم 4658

([2]) مسند الإمام أحمد ، باقي مسند المكثرين ، حديث رقم 12577

عليه وسلم يصلي قاعداً حتى كان قبل وفاته بعام فكان يصلي في سبحته قاعداً وكان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها)([8]) .

فهذه هي طريقته العملية في ترتيل القرآن الكريم حيث أنها التؤدة والاطمئنان الموصولان إلى التفكر والفهم للمراد من معاني الآيات القرآنية ، أما توجيهاته لأصحابه ولمن يأتي من بعدهم في هذا المجال فقد كان صلى الله عليه وسلم يشير إلى الطريقة الموصلة للأهداف المذكورة من فهم وتدبر ، ففي شعب الإيمان للبيهقي عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين ، فإنه سيجئ من بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم)([1]) وفي المعجم الأوسط للطبراني ، عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين ، فإنه سيجئ من بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح لا يجاوز حناجرهم ،

([1]) **صحيح مسلم ، كتاب صلاة السافرين وقصرها ، حديث رقم 1212**

([2]) **شعب الإيمان للبيهقي ، حديث رقم 2649 وفي سنده بقية بن الوليد قال البيهقي : بقية ليس له غير حديث واحد وهو من أهل افريقية**

مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم)([8]) ورواه صاحب مجمع الزوائد (وقال فيه راو لم يسم وبقية)([1]) .

ومن التوجيهات الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن التلاوة: التغني بالقرآن ففي سنن الدارمي عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)([2]) .

والذي يفهم من ظاهر الحديث أن التغني المقصود هنا هو تحسين الصوت ، غير أن الروايات قد وردت في معنى التغني ومن ذلك رواية صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن وزاد غيره يجهر به)([3]) .

فكلمة يجهر به لعلها – والله اعلم – من قبيل التغني به ، وفي مسند الإمام أحمد ، عن سعيد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، قال وكيع : يعني يستغنى به)([4]) وهنا كلمة (يستغنى) تفسيراً للتغني به .

([1]) **المعجم الأوسط للطبراني ، حديث رقم 7223**

([2]) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ، باب القراءة بلحون العرب**

([3]) **سنن الدارمي ، فضائل القرآن ، حديث رقم 3352 ، ومثله في أطراف الحديث كتاب الصلاة ، حديث رقم 1452**

([4]) **صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، حديث رقم 6973**

([5]) **مسند الإمام أحمد ، مسند العشرة المبشرين بالجنة ، حديث رقم 1396**

وإذا كان ما ذكر من ترتيل النبي صلى الله عليه وسلم وصفته العملية لهذا الترتيل وتوجيهاته للناس في هذا الصدد يبقى أن ننظر كيف كان التعامل بهذه الصفة وبهذه التوجيهات عند أصحابه عليهم الرضوان أجمعين .

حتى يضمن لهم ثمرة التلاوة من تدبر وتفكر في معانيه كان صلى الله عليه وسلم يرشد إلى المدة الزمنية لختم القرآن بالصفة التي تمكنهم من بلوغ الغاية من التلاوة ، أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرإ القرآن في شهر ، قلت : إنِّي أجد قوةً ، ، قال : اقرأه في عشر ، قلت : إنّي أجد قوةً ، حتى قال : فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك)([1]) .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود أن رجلاً قال له : إني لأقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال : هذًّاً كهذِّ الشعر ، إن قوماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع([2]) .

([1]) البخاري ح رقم 4666 ومسلم رقم 1964

([2]) صحيح مسلم ح رقم 1358 ، وليس في البخاري ما استشهد في آخر الحديث .

المطلب الثاني
صفة تلاوة عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

لاشك أن أصحاب النبي عليهم الرضوان أجمعين كانوا أكثر الناس تقليداً لصفته العملية وأكثر الناس عملاً بتوجيهاته ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يستمع إليهم ويجيزهم ويثني على بعضهم .

جاء في سنن الدارمي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لأبي موسى وكان حسن الصوت بالقرآن : (لقد أوتى هذا من مزامير آل داود)([1]) وكان يطلب أن يسمعه منهم كما جاء في صحيح البخاري من حديث ابن مسعود أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ عليَّ ، قلت يا رسول الله : آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : نعم ، أحب أن اسمعه من غيري ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا)( ) فقال حسبك الآن ، فإذا عيناه تذرفان)([2]) .

([1]) سنن الدارمي باب التغني بالقرآن ، ح رقم 1541 ، وفي سنن النسائي باب تزيين القرآن بالصوت ح رقم 1010 ، وورد نحوه في الصحيحين وغيرهما .

([2]) سورة النساء الآية 41

([3]) صحيح البخاري ح رقم 4216 وح رقم 4662

وكان بعض الصحابة يستمع إلى قراءة بعضهم ويقيمها حسب المعيار الذي ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى الطبراني في معجمه الكبير أن ابن مسعود رضي الله عنه ، كان يقرئ رجلاً فقرأ الرجل : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) مرسلة ، فقال ابن مسعود : (ما هكذا أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن ؟ قال اقرأنيها : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) فمدها ، وهنا نجد أن ابن مسعود ينكر على الرجل قراءته بالإرسال لأنه أي – ابن مسعود – يعمل بمقتضى سماعه لقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم التي رواها أنس بن مالك كما في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (كانت مداً) ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد بسم الله ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم([8]) .

قال البروفسير يوسف الخليفة أبو بكر في كتابه أصوات القرآن : لم أقف على أحاديث أخرى تنص على صفة محددة للقراءة وطريقة إخراج الأصوات غير هذين الحديثين في شأن المد([9]) ويقصد بالحديثين حديث ابن مسعود وحديث أنس آنف الذكر ، والله تعالى أعلم .

([1]) **صحيح البخاري باب مد القراءة ، حديث رقم 4759**

([2]) **أصوات القرآن للبروفسير يوسف الخليفة أبو ببكر ص 124**

المطلب الثالث
صفة التلاوة المعتمدة عند علماء القراءات

بعد انتقال النبي عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، وانتقال أمر القرآن والدعوة إلى أصحابه الكرام ، كان العمل يجري على ما ورثوه منه صلى الله عليه وسلم من قول وعمل ، ثم ما لبث الإسلام أن اتسعت رقعته وكبر نطاقه ودخل فيه غير العرب فكان لابد من استيعاب العناصر الجديدة في الإسلام والحفاظ على القرآن بحروفه وتركيبات كلماته وأصوات حروفه فكان علم التجويد الذي يحدد مخرج الحرف وصوته ومده وقصره إلى غير ذلك ممَّا كانوا يقيدون به اللسان ليظل عربياً في كلمات القرآن الكريم وتلاوته .

ذكرنا آنفاً أن الله قد قيض لهذا العلم رجالاً نفضوا عنه الغبار ، ونفوا عنه الزيف والتحريف ، فوضعوا الضوابط والقوانين التي تصح بها التلاوة ، وتكتسب بها الشرعية ومن هؤلاء إمام القراءات الشهير ابن الجزري صاحب النشر في القراءات العشر ، حيث يقول : (ولا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده ، متعبدون بتصحيح ألفاظه واقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الافصحية العربية التي لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها ، والناس في ذلك بين محسن مأجور ومسيئ آثم ، أو معذور ، فمن قدر على تصحيح كلام الله تعالى باللفظ الصحيح العربي الفصيح ، وعدل إلى اللفظ الفاسد العجمي أو النبطي القبيح استغناء بنفسه واستبد برأيه وحدسه واتكالاً على ما ألف من

حفظه واستكباراً عن الرجوع إلى عالم يوقفه على صحيح لفظه ، فإنه مقصر بلا شك ، واثم بلا ريب ، وغاش بلا مرية ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الدين النصيحة : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم(٨))([1]) .

ثم يبدأ ابن الجزري رحمه الله في بيان ضوابط القراءة الصحيحة فيقول : (وأول ما يجب على مريد إتقان القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحاً يختص به عن مقاربه ، وتوفية كل حرف صفته المعروفة به توفية تخرجه عن مجانسه ، يعمل لسانه وفمه بالرياضة في ذلك اعمالا يصير ذلك طبعاً وسليقة ، ويقول : فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حدته مُوَفٍّ حقه فليعمل نفسه بأحكامه حالة التركيب لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد وذلك ظاهر ، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة بحسب ما يجاورها من مجانس ومقارب وقوي وضعيف ، ومفخم ومرقق فيجذب القوى الضعيف ويغلب المفخم المرقق ، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقِّه إلا بالرياضة الشديدة حالة التركيب فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصل حقيقة التجويد بالإتقان والتدريب([2]) .

([1]) **صحيح البخاري باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة حديث رقم 56**

([2]) **النشر في القراءات العشر ج1 ص 210-211**

([3]) **انظر المصدر السابق ص 214-215**

هذا كلام ابن الجزري في مقدمة كلامه عن قواعد التجويد إلا أن المقام لا يسع لسرد كل القواعد وهذه فقط إشارة إلى ما يسع له مقام هذه الدراسة عسى أن نوفق في طور آخر من أطوار هذا البحث وبالله التوفيق .

المبحث الثالث
الألحان المحلية (التوشيحات والمقامات) :

المطلب الأول
الموشحـــــــــات

معنى الموشحة : من الوشاح وهو كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان ، مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر تتوشح المرأة به ، وقال الجوهري : الوشاح ينسج من أديم عريضاً ويرصع بالجواهر وتشدُّه المرأة بين عاتقيها وكشحيها ، ويقال توشح الرجل بثوبه بمعنى أن يخرج طرفه الذي ألقاه على عاتقه الأيسر من تحت يده اليمنى كما يفعل المحرم(٨) .

ومن هذا المعنى اللغوي أخذت كلمة الموشحات بالمعنى الشعري فقد تصور الأندلسيون هذا النوع من النظام فوضعوا فيه وحدات كبيرة تسمى الأشطار ، وقد جزئت أجزاء صغيرة فأصبحت أشطاراً أصغر من أشطار القصيدة(□) .

([1]) لسان العرب لابن منظور ، فصل الواو باب اللام مادة (وشح)

([2]) تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين د / إحسان عباس ص 22

أما المعنى الفني للموشحة فهي ، منظومة غنائية ، لا تسير في موسيقاها على المنهج التقليدي الملتزم لوحدة الوزن ورتابة القافية ، وإنما تعتمد على منهج تجديدي متحرر نوعاً بحيث يتغير الوزن ، وتتعدد القافية ولكن مع التزام التقابل في الأجزاء المماثلة ، وهو أيضاً كلام منظوم على وزن مخصوص ، ويتألف في الأكثر من ستة أقفال ، وخمسة آبيات ، ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة آبيات ، ويقال له الأقرع ، فالتَّام ما ابتدئ فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالآبيات([8]) .

عوامل ظهور الموشحات :

ظهر هذا اللون من الشعر استجابة لتطور الحياة الاجتماعية في بلاد الأندلس حيث سرى الترف إلى كل مظاهر الحياة ، وشمل الجمال والحسن والرفاهية والنعيم والقصور والمنازل ، والخاصة والعامة ، وألهمتهم طبيعة تلك الأرض الخصبة أن يتخذوا القيان وأن يصغوا إلى الألحان ، فكثر الغناء والمغنون والمغنيات ـ فاستجاب الشعراء لدواعي الحياة الجديدة ، وهناك تنافس فحولهم على توليد القول واختيار واختراع الأوزان ، وانتخاب القصيد واخترع المعاني ، وابتداع الأسلوب ليكون لحناً للمغني أو المغنية([9]) .

([1]) **دار الطراز ص 43**

([2]) **انظر تاريخ الأدب العرب الأندلسي د / إبراهيم أبو خشب ص 268**

يضاف إلى عامل تطور الحياة عامل آخر وهو لغوي أدى إلى نشأة الموشحات وهذا العامل (ثنائية اللغة) ذلك أن العرب امتزجوا بالأسبان ، وألفوا شعباً جديداً فيه عروبة وفيه أسبانية ، وكان من مظاهر هذا الامتزاج أن عرف الشعب الأندلسي العامية اللاتينية الرومانية ، كما عرف الشعب العامية العربية أي أن هناك أزدواجاً لغوياً ، فكان لابد أن ينشأ أدب يمثل تلك الازدواجية اللغوية فكانت الموشحات التي كانت تكتب بالعربية ، وكانت الفقرة الأخيرة فيها وهي الخرجة يعتمد فيها على عامية الأندلس والرومان ، فالموشحات تمثل الاستجابة لحاجة الأندلس الاجتماعية وهي حبهم للموسيقى والغناء ، كما تمثل الاستجابة اللغوية حيث كانت فصيحة في فقراتها ، عامية ، رومانثية في خرجتها)([8]) .

وهناك عامل ثالث أدى إلى ظهور الموشحات وهو الضعف الأدبي الذي طغى على العقول والأفكار والأساليب والأقلام ، فكانت موجة الهزال والمرض ولوثة الرجوع إلى الوراء قد اكتسحت المشرق والمغرب فأصابت البلاغة العربية في مقتل وكان الموشح هو الخطوة الأولى ، ولذلك نراهم يهملون كثيراً من القوانين والقواعد ، فتحول إلى لون جديد وهو ما يعرف بالزجل)([9]) .

([1]) **الأدب الأندلسي ، أحمد هيكل ص 144**

([2]) **تاريخ الأدب العربي في الأندلس ، أبو الحسن ص 298**

والأمر الواضح أن الموشحات هي (نوع من الموسيقى المتطورة التي تقوم على أوزان لم يألفها العروض الخليلي ، نظراً لاختلافه في بلاد الأندلس عن الموسيقى المشرقية ، بسبب ما حدث من تطور في الإيقاع ، وإدخال الكلمات الأعجمية فيها وهو أمر طبيعي نظراً لوجود لغة أخرى كان يتحدث بها سكان شبه الجزيرة وهي اللغة الرومانثية وهي لغة شعبية كما سبق أن ذكرنا)([8]) .

مهما تكن العوامل التي أدت إلى ظهور هذه الموشحات ومهما يكن الأثر السلبي الذي خلَّفته في اللغة والأدب ، فإن الأمر الذي يهمنا هنا هو : ما صلة هذه الموشحات بالقرآن الكريم ومتى دخلت على تلاوته حتى صارت عند العامة شرطاً في الاستماع إليه والتقويم لقارئه .

أشار صاحب النشر إلى هذا النوع من الفن على سبيل النقد والتقبيح وذلك عند كلامه عن التجويد فقال (لقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن صوت ولا معرفة بالألحان إلا أنه كان جيد الأداء ، قيم باللفظ ، فكان إذا قرأ أطرب المسامع ، وأخذ من القلوب بالمجامع ، وكان الخلق يزدحمون عليه ، ويجتمعون على ا لاستماع إليه ، أمم من الخواص والعوام ، يشترك في ذلك من يعرف العربي ومن لا يعرفه من سائر الأنام مع تركهم جماعات من

([1]) انظر معالم الأدب الأندلسي د . مُحَمَّد سيد ص 86-87

ذوى الأصوات الحسان ، عارفين بالمقامات والألحان لخروجهم عن التجويد والإتقان)([٨]) .

فهنا نلاحظ إشارة صريحة في ذم القراءة بالمقامات وأنها خروج عن التجويد ، لقوله (لخروجهم عن التجويد والإتقان)

([1]) **النشر في القراءات العشر لابن الجوزي المتوفى سنة 833هـ –دار الكتب العلمية ج1 ص 212–213 بيروت –لبنان**

المطلب الثاني
المقامـــــــات

المقامات جمع مقامة وهي : (حكاية خيالية تشتمل على حادثة تدور غالباً حول التكسب بالأدب ، وتنتهي بفكاهة أو عظة ، ولكل مقامة بطل رواية ، وبطل المقامة يقوم بالأحداث فيها ، وهو أديب واسع الاطلاع خبير باللغة وحقائقها وأسرارها ، وقد ضاقت به سبل العيش ، فصرف همه إلى اكتسابه عن طريق الأدب مع الرحلة والتجوال وفيها يعرض البطل ثقافته اللغوية والأدبية مع ما يتخلل ذلك من فكاهات ونوادر)([8]) .

وكان بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة (398هـ) هو أول من برع في كتابة هذا الفن ثم جاء بعده الحريري وكلاهما من كتاب المشرق وقد وصلت مقاماتهما إلى بلاد الأندلس فقام الأندلسيون بمعارضة المقامات فنسجوا على منوالها، غير أن الاهتمام بمقامات الحريري كان أشد إذ أقبل كتاب الأندلس على معارضتها ومنهم ابن شرف القيرواني)([9]) .

([1]) معالم الأدب الأندلسي د0 مُحَمَّد السيد عيد ط 1411هـ- 1991م ص 107-108

([2]) المرجع السابق نفس الصفحة

لعل هذا التعريف للمقامة هو تعريف لها كفن من فنون الرواية الأدبية أما تعريفها كنغم من الأنغام فهي كما قال صاحب الإسلام السياسي والديني والثقافي (ظهر بين كتاب العرب كتاب ألفوا كتابة النثر المسجوع متأثرين في ذلك بالقرآن الكريم وخطب الجاهلية ، كخطب أكثم بن صيفي الذي يقول : أيها الناس من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت 000 الخ وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه .

وقد ظهر هذا النوع في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في خطب الخلفاء وعمال الأقاليم ، ثم تطور هذا الفن على أيدي الكتاب المحترفين من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة (374هـ-984م) كما تطور على أيدي كتاب البلاط من أمثال إبراهيم بن هلال الصابي المتوفى سنة (384هـ-94م) ومن ثم أصبح السجع من مميزات الأدب الذي التزمه الأدباء ، ومن هنا ظهرت طائفة من بين كتاب العربية من العرب والفرس ابتدعوا فناً خاصاً من بين فنون الأدب يدعى فن المقامات .

وإلى بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة (398هـ- 1007م) يرجع الفضل في ابتكار هذا النوع الجديد المميز من السجع المعروف باسم المقامات . والمقامة حكاية تقال في مقام معين(٨)

(1) **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج1 ص 501 د . حسن إبراهيم حسن**

المطلب الثالث
نماذج بالرسم توضح اتجاهات الصوت
عند القـــراءة بالتوشيحـــــات والمقامـــــات

نماذج من القراءة بالمقامات والتوشيحات
من كاسيت بصوت القارئ الاندونيسي
محمد علي

أولاً : يبدأ (الكاسيت) بموسيقى أم كلثوم

وذلك ليستحضر القارئ المقامات

ثانياً : يجرب بأبيات من الشاطبية

ثالثاً : ينتقل إلى الآيات من أول سورة البقرة

(1- 5) وبعد ذلك سورة الإسراء

يجرب لكل مقام يتبع له من تزيين

النموذج الأول :

مقام بياتي قال تعالى

(قرار)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

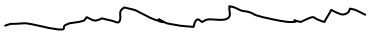

(بياتي) (نوى)

ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين

(حسيني)

الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة

(صوت جواب)

ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون

(صوت جواب الجواب)

والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك

وبالآخرة هم يوقنون

(ترنين شورى)

أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون

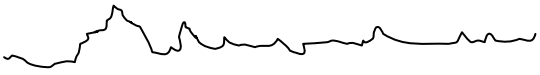

تجريب نغام بياتي مأخوذ من سورة الإسراء

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (صوت (النوى)

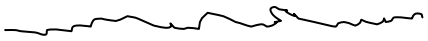

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين

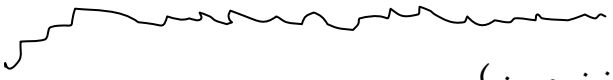

(ترنين حسيني)

ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات

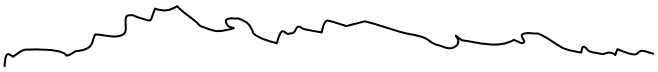

(صوت جواب)

ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصلحات أن لهم أجرا كبيرا

(صوت جواب الجواب)

وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما

(ترنين شورى)

ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا

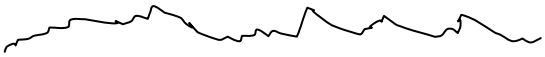

توشيح (مقام بياتي) بصوت قرار ، نوى ، جواب

وجواب الجواب وكذلك بترنين حسيني وشورى

(1) صوت / شكل قرار :

- بدأت يبسم الله في النظم أولا- (نوى)

- بدأت يبسم الله في النظم أولا- (نوى)

- تبارك رحمنا رحيما وموئلا (حسيني)

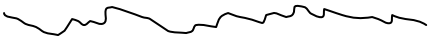

- وثنيت صلى الله ربي على الرضى

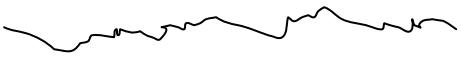

-

- محمد المهدي إلى الناس مرسلا

- وعترته ثم الصحابة ثم من (جواب)

- تلاهم على الإحسان بالخير وبلا

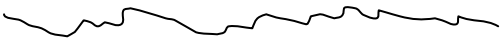

- وثلثت أن الحمد لله دائماً (جواب الجواب)

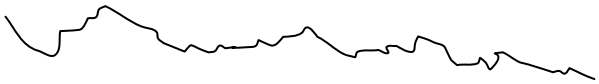

- وما ليس مبدوئا به اجذم العلا

- وبعد فحبل الله فينا كتابه (شورى)

- فجاهد به حبل العدا متحبلا

نغام صبا

(أول مقام)

المطلب الرابع
أراء العلماء حول القـــراءة بالمقامـــــات

لاشك أن فن التوشيح والمقامات في تلاوة القرآن الكريم من الأمور المحدثة التي لا تنم بصلة إلى عمل النبي صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه كما أشرنا إلى ذلك أثناء هذا البحث ولاشك أنَّ لأهل العلم لهم آراء في هذا المجال ، فالذين وصفوه بالبديعة : صاحب الإتقان في علوم القرآن حيث قال : (قد ابتدع الناس في قراءة القرآن أصوات الغناء ، فقال : أول ما غنى به من القرآن قوله تعالى (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ)([1]) نقلوا ذلك من تغنيهم بقول الشاعر :

أما القطاة فإني سوف أنعتها *** نعتاً يوافق عندي بعض ما فيها

وقد قال صلى الله عليه وسلم (مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم)([2])

ومما ابتدعوه شيء سموه الترعيد وهو : أن يرعد صوته كأنه يرعد من برد أو ألم ، وآخر سموه الترقيص وهو أن يروم السكوت على الساكن ثم ينفر مع الحركة كأنه في عدو أو هرولة وآخر يسمى : التطريب وهو أن يترنم بالقرآن

([1]) سورة الكهف الآية 79

([2]) شعب الإيمان للبيهقي ، باب اقرءوا القرآن بلحون العرب ، ح رقم 2541

ويتنغَّم به ، فيمد في غير موضع المد ، ويزيد في المد على ما لا ينبغي . وآخر يسمى التحزين وهو أن يأتي على وجه حزين يكاد يبكي من خشوع وخضوع ، ومن ذلك نوع أحدثه هؤلاء الذين يجتمعون فيقرأون كلهم بصوت واحد ، فيقولون في قوله تعالى (أفلا تعقلون) (افل تعقلون) بحذف الألف ، وقالوا آمنا بحذف الواو 000 يمدون ما لا يمد ليستقيم لهم الطريق التي يسلكونها ، وينبغي أن يسمى التحريف)([1]) .

وقد أسلفت الحديث عن ابن الجزري في ذمه هذا النوع من التلحين في صفحة 24 من هذا البحث حيث قال (لقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن صوت ولا معرفة بالألحان إلا أنه كان جيد الأداء ، قيم باللفظ 00 إلى أن قال وكان الخلق يزدحمون عليه ، ويجتمعون على ا لاستماع إليه ، أمم من الخواص والعوام ، يشترك في ذلك من يعرف العربي ومن لا يعرفه من سائر الأنام مع تركهم جماعات من ذوى الأصوات الحسان ، عارفين بالمقامات والألحان لخروجهم عن التجويد والإتقان .

وقال (ابن الجزري) في موضع آخر في كلامه عن التجويد (فليس التجويد بتمضيغ اللسان ، ولا بتقعير الفم ، ولا بتعريج الفك ، ولا بترعيد الصوت ، وبتمطيط الشد ، ولا بتقطيع المد ، ولا تطنين الغنات ، ولا بحرصمة الراءات ، قراءة تنفر عنها الطباع وتمجها القلوب والأسماع ، بل القراءة السهلة

([1]) **الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج1 ص 101-102**

العذبة الحلوة اللطيفة ، التي لا مضغ ولا لوك ولا تعسف ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، ولا تنطع ، ولا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء)([8]).

إذا نظرنا إلى هذه الأوصاف التي ذكرها ابن الجزري وقارناها بالألحان التي ظهرت عندنا في هذا العصر في السودان نجد أننا من ضمن من تشملهم المؤاخذة والذم في هذا المجال ، فترعيد الصوت وتمطيط الشد وتقطيع المد وتطنين الغنة كلها أصبحت سمة التلاوة الحديثة عند بعض حفظة القرآن الكريم ، فليتنا نخلع عن ذلك إلى السنة في التلاوة لنجد التلاوة العذبة الحلوة اللطيفة التي كانت سمة التلاوة عند قدماء مشايخ القرآن في كثير من خلوات القرآن بالسودان ، وذلك لأن الألحان التي نسمعها اليوم في كثير من التلاوات في كثير من البلاد الإسلامية ذات نمط موسيقي ونغم غنائي يتنافى وأهداف تلاوة القرآن الكريم لذا رأينا فقهاء المذاهب الإسلامية مثل مالك والشافعي يقضون بالمنع في هذه الظاهرة ، كما جاء في تاريخ ابن خلدون (وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغف وغير ذلك ، والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن .

([1]) النشر في القراءات العشر ج1 ص 212-213 ط بيروت -لبنان

فأولاً : أن لا يخرج من الصوت إلى مدة دفعة بل بتدريج ، ثم يرجع كذلك وهكذا إلى المثل ، بل لابد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من استقباح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج ، فإنه من بابه .

وثانياً : تناسبها في الأجزاء ، فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه ، على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حصره أهل صناعة الموسيقي ، فإذا كانت الأصوات على تناسب في الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة ، ومن هذا التناسب ما يكون بسيطاً ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه ، لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة ، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك ، وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار ، وكثير من القراء بهذه المثابة ، يقرأون القرآن فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ، ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب ، وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطبائع توافق صاحبها في العمل به إذا علم .

وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى ، وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين ، وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه ، وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي ، فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره ، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه ، لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت

لتعيين أداء الحروف من حيث إتباع الحركات في مواضعها ، ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره ، وأمثال ذلك ، والتلحين أيضا يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين .

فاعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا ، وتقديم التلاوة متعين فرارا من تغيير الرواية المنقولة في القرآن ، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه ، وليس المراد من اختلافهم التلحين البسيط الذي يهتدي بوجه ، وإنما المراد من اختلافهم التلحين البسيط الذي يهتدي إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمنا فيردد أصواته ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره ، ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك ، هذا هو محل الخلاف ، والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى ، لأن القرآن هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده ، وليس مقام التذاذ بادراك الحسن من الأصوات وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في أخبارهم .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود ، فليس المراد به الترديد والتلحين إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف ، والنطق بها ، وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في العمران إذا توفر وتجاوز حد الضروري إلى الحاجي ، ثم إلى الكمالي ، وتفننوا فيه ، فتحدث هذه الصناعة ، لأنه لا يستدعيها إلا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره ، فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر

أحوالهم تفنناً في مذاهب الملذوذات ، وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر في أمصارهم ومدنهم ، وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ، حتى كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ولهم مكان في دولتهم ، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها ، وهذا شأن العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم([1]) .

ومن هنا يتضح أن هذه الأصوات ليس عربية ناهيك عن أن تكون من أصوات القرآن وإن شاء الله يتسع هذا البحث في مجال آخر ليشمل الحديث عن الموسيقي ومدى صلتها بالبلاد العربية وذلك كله لنميز الخبيث من الطيب وليعلم أهل القرآن طريقة السلف في تلاوة كتاب ربهم سبحانه وتعالى .

([1]) تاريخ ابن خلدون ج1 ص 455-456 -دار الكتب المصرية